العدلُ السَّخيّ

كيف تجعلُ النعمة منّا أشخاصًا عادلين

العدلُ السَّخيّ

كيف تجعلُ النعمة منّا أشخاصًا عادلين

تيموثي كَلِر

ترجمة: عطاالله البخيتان

أوفير
ophir

Copyright © 2010 by **Timothy Keller.**

Originally published in English under the title:
Generous Justice

by the Penguin Group – Penguin Group (USA) LCC
375 Hudson Street, New York, New York 10014, USA
All rights reserved.

Arabic Edition Copyright © 2021 by
Ophir Printers & Publishers.

All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

العدل السخي
الطبعة العربية الأولى ٢٠٢١م
حقوق الطبع محفوظة

أوفير للطباعة والنشر
ص.ب. ٣٠٦٢، عمّان ١١١٨١، الأردن
هاتف: ٩٦٢ ٦ ٤٦٣ ٣٣٨١+

Email: info@ophir.com.jo
www.ophir.com.jo

ISBN: 978-90-5950-286-4

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه،
أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها، أو استنساخه بأي شكل من الأشكال،
دون إذن خطي مسبق من الناشر.

المحتويات

المقدِّمة: لماذا أكتبُ في هذا الموضوع؟	٧
لِمَن كُتِبَ هذا الكتاب؟	٩
الفصل ١: ما معنى أن نصنعَ العدل؟	١٩
الفصل ٢: العدلُ والعهدُ القديم	٣٣
الفصل ٣: ماذا قال يسوع عن العدل؟	٥٣
الفصل ٤: العدلُ وقريبُك	٦٩
الفصل ٥: لماذا ينبغي لنا أن نصنعَ العدل؟	٨١
الفصل ٦: كيف ينبغي أن نصنعَ العدل؟	١٠٥
الفصل ٧: صنعُ العدل في الميادين العامَّة	١٣٥
الفصل ٨: السلامُ والجمالُ والعدل	١٥٣
الملاحظات	١٦٩

المقدِّمة

لماذا أكتبُ في هذا الموضوع؟

وَلَمَّا فَتَحَ السِّفْرَ وَجَدَ الْمَوْضِعَ الَّذي كانَ مَكْتُوبًا فيه: «روحُ الرَّبِّ عَلَيَّ، لأَنَّهُ مَسَحَني لأُبَشِّرَ المساكينَ، أَرْسَلَني لأَشْفيَ المنْكَسري الْقُلُوب، لأُناديَ لِلْمَأْسُورينَ بالإطْلاق وللْعُمْي بالْبَصَر، وَأُرْسلَ المنْسَحقينَ في الحرِّيَّة، وَأَكْرزَ بسَنَة الرَّبِّ المقْبُولَة».

لوقا ٤: ١٧-١٨

هذه هي الكلماتُ التي قرأها يسوع في المجمَع في الناصرة عندما أعلنَ عن نفسِه هناك. لقد عرَّف عن نفسِه أنَّه "عبدُ الله" الذي تنبَّأ عنه النبيُّ إشعياء، والذي "يُخرِج الحقَّ/ العدلَ" (إشعياء ٤٢: ١-٧). يُدركُ أغلبُ الناس أنَّ يسوع جاء ليجلبَ الغفران والنعمة، لكنَّ التعليم الكتابيَّ الأقلَّ شهرةً هو أنَّ الاختبار الحقيقيَّ لنعمة يسوع المسيح لا بدَّ أن يُحفِّزَ الإنسانَ للسَّعي وراء العدل في العالم.

في أثناء عَملي على هذا الكتاب، سمعتُ سؤالَين من أصدقائي: "لِمَن تكتبُ هذا الكتابَ؟" و "ما السببُ وراءَ اهتمامِك بموضوعِ العدل؟". وليس من طريقةٍ أفضلُ لتقديمِ هذا الكتابِ من الإجابةِ عن هذين السؤالَين.

لِمَن كُتِبَ هذا الكتاب؟

هناك أربعُ فئاتٍ من الناس أتمنَّى أن يقرأوا هذا الكتاب: فئة المسيحيِّين المؤمنين الشباب الذين تجاوَبوا بفرحٍ مع دعوة الاهتمام بالمحتاجين؛ فحبُّ التطوُّع هو السِّمةُ البارِزةُ لكلِّ جيلِ طلَّابِ المعاهد الأميركيَّة والخرِّيجين الجدد. إذ ذَكَرَتْ "نَنبروفيت تايمز" (NonProfit Times) أنَّ المراهقين والشباب باتوا يُسبِّبون "طفرةً هائلةً في عددِ طلبات التطوُّع". يقول آلان سولومونت (Alan Solomont)، وهو رئيس مجلس إدارة "منظَّمة خدمة الوطن والمجتمع" (Corporation for National and Community Service) إنَّ "جيلَ الشباب [هذا]...أكثرُ اهتمامًا بالخدمة المجتمعيَّة من الأجيال الأخرى".[1] إذ قد تدنَّت معدَّلات التطوُّع ما بين الشباب بصورةٍ واضحة في سبعينيَّات القرن الماضي وثمانينيَّاته، لكنْ "ترعرعَ الجيلُ الحاليُّ في مدارسَ تُقدِّم برامجَ لتعليمِ الخدمة... لذلك شرعَ الشبابُ في خدمة المجتمع من سنٍّ مبكِّرةٍ بِخلاف السابق".[2]

بصفتي راعيًا لكنيسةٍ تعجُّ بالشباب، فقد رأيتُ لديهم هذا الاهتمامَ بالعدلِ الاجتماعيّ، لكنِّي رأيتُ أيضًا أنَّ هذا الاهتمام لا يؤثِّر في الحياة الشخصيَّة للكثيرين. فلا يؤثِّر في طريقة إنفاق أموالهم، ولا في كيفيَّة إدارتهم لعملهم، أو أسلوبِ حياتهم في أحيائهم، أو مَن يُصادقون. وأيضًا يخبو الشغفُ بالتطوُّعِ لدى كثيرين منهم بمرور الزمن.

لقد تشرَّبوا من ثقافتهم الشبابيَّة الاستجابةَ العاطفيَّة للعدل الاجتماعيّ، وأيضًا النزعة الاستهلاكيَّة التي تقوِّضُ نكرانَ الذات والإشباع المؤجَّل*. لا يمكن أن تُحقِّق ثقافات الشباب المسيطرة في الدُّول الغربيَّة هذا التغييرَ الشَّاملَ للحياة فينا، وهو ضرورةٌ إنْ أردْنا إحداثَ الفارقِ لفائدة الفقراء والمُهمَّشين. رغمَ إيمانِ الكثير من الشباب بالإيمان المسيحيِّ، فهو إيمانٌ غير مرتبطٍ بتَوقِهم إلى مساعدة المحتاجين في حياتهم. ويُعزى ذلك إلى عدم تفكيرهم في الآثار المترتِّبة لبشارة يسوع على صنع العدلِ† في كلِّ مناحي الحياة. في هذا الكتاب سأحاول بيانَ هذا الارتباط.

العدلُ والكتاب المقدَّس

والفئة الأُخرى التي أتمنَّى أن تقرأ هذا الكتاب هم مَن يُفكِّرون بارتيابٍ في موضوع "صُنْع العدل". في القرن العشرين، انقسَمَتِ الكنيسةُ في الولايات المتَّحدة إلى ليبراليَّة/ متحرِّرة- وهي التيَّارُ السَّائد، وشدَّدت على العدالة الاجتماعيَّة- ومحافِظة، وشدَّدت على الخلاص الفرديّ. أحدُ المؤسِّسين لحركة الإنجيل الاجتماعيِّ (Social Gospel Movement)‡ هو ولتر راوشنبُش (Walter Rauschenbusch) خادم ألمانيّ، كانت خدمته الراعويَّة الأولى في حيِّ هيلز كيتشن (Hell's Kitchen) على أطراف مدينة نيويورك في ثمانينيَّات القرن التاسع عشر. وقد أفضَتْ به تجرِبتُه الأولى

* الإشباع المؤجَّل: هو مقاومةُ الشعور بالإلحاح لأخذِ مكافأةٍ متاحة الآن على أمل الحصول على مكافأةٍ أكبر في المستقبل. والمقصود هنا: أنَّ الإنسان لا يعود يهتمُّ بالمكاسب المستقبليَّة بقدر رغبته التي لا تقاوم في أخْذِ ما هو متاح الآن والشعور بالرِّضى جرَّاء تسديد حاجته الحاليَّة (كما يقول المثل: عصفور باليد أحسن من عشرة على الشجرة) (المترجم).

† هناك مصطلحاتٌ أنسبُ من مصطلح "صُنْع العدل"، مثل إقامة العدل أو السعي إلى تحقيق العدل، لكنِّي ارتأيتُ استخدامه لوروده في الكتاب المقدَّس بهذه الصورة (المترجم).

‡ حركة الإنجيل الاجتماعيِّ: شدَّدت هذه الحركة على أنَّ تعاليم يسوع الأخلاقيَّة تُعالج المشكلات الاجتماعيَّة التي نتجت عن الحِقبة الذهبيَّة للرأسماليَّة. واتَّخذ قادة الحركة من تعليم يسوع بشأن محبَّة القريب أساسًا لعظاتهم، وموضوعًا أساسيًّا لكتبهم ومحورًا مهمًّا لمحاضراتهم (المترجم).

مع الفقر المدقع في الحيِّ إلى التفكير في الكرازة التقليديَّة التي تتحمَّل المشقَّات في سبيل خلاص نفوس الناس، لكنَّها لا تفعل شيئًا حِيالَ الأنظمةِ الاجتماعيَّة التي تَحصُرهم في الفقر. بدأ راوشُنبُش بالخدمة "لكلٍّ من الروحِ والجسد". لكنْ رافقَ هذا التحوُّل في المنهجيَّة تحوُّلٌ في اللَّاهوت أيضًا. إذ رفضَ الإيمان المعروف للكتاب المقدَّس والكفَّارة. وعلَّمَ أنَّ يسوعَ لم يكُنْ يحتاجُ إلى إرضاءِ عدلِ الله، وأنَّه ماتَ ليكونَ مثالًا عن الإيثار أو عدم الأنانيَّة.[٣]

لذلك يرتبطُ "صنعُ العدلِ" في ذهنيَّة مؤمنين كثيرين ارتباطًا وثيقًا بفقدان والإيمان والنشاطِ الروحيِّ السَّليمَين. لكنَّ جوناثان إدواردز (Jonathan Edwards) الواعظُ من القرن الثامن عشر، قدَّمَ عظةً بعنوان "خطاةٌ بين يدي إله غاضب" (Sinners in the Hands of an Angry God) في معرضِ حديثه بشأن "واجب العطاء للفقراء"، اختتمَ بالقَول: "هل من وصيَّةٍ في الكتابِ المقدَّس مُعبَّرٌ عنها بأقوى العبارات وبأسلوبٍ مُلحٍّ جدًّا أكثر من وصيَّةِ العطاءِ للفقراءِ؟".[٤]

على خلاف راوشُنبُش، حاجَّ إدواردز أنَّنا لسنا مجبَرين على تغييرِ العقائد الأساسيَّة عن الخلاص لكي نخدِمَ الفقراء، بل على العكس، فخدمةٌ كهذه تنبعُ مباشرةً من تعليم الكتاب المقدَّس. إذ رأى إدواردز أنَّ الانخراطَ مع الفقراء والإيمان هما صنوان لا يفترقان. أمَّا اليوم فهذه التوليفة نادرةٌ نوعًا ما، ويجب ألَّا يحدُثَ ذلك. أنا أكتب هذا الكتاب للَّذين لم يرَوا بعد ما رآه إدواردز: أنَّ رؤيتنا بالروح القدس لما فعله المسيح من أجلنا، ستؤدِّي إلى أعمالِ عدلٍ وتعاطُفٍ مع الفقراء.[٥]

ومن الذين أتمنَّى أن يُلقوا بالًا لهذا الكتاب هم الإنجيليُّون الشباب الذين "وسَّعوا مهمَّتهم" لتشملَ العدالة الاجتماعيَّة مع الكرازة.[٦] وكثيرون منهم تحوَّلوا عن الصِّيغ القديمة للخدمة، بل أيضًا عن الإيمان بكفَّارة المسيح البدليَّة والتبرير بالإيمان وحده، وهي أمورٌ يرونَ أنَّها "تدورُ حول الفرد" جدًّا.[٧] يُحاجُّ هؤلاء

المؤلِّفون عادةً أنَّ التغييرات التي تطالُ التشديدات اللاهوتيَّة هي أمورٌ ضروريَّةٌ إنْ أرادَتِ الكنيسةُ الانخراطَ أكثر في السَّعي إلى تحقيق العدالة الاجتماعيَّة. لا يَسعُنا حجمُ هذا المؤلَّفِ للنَّظرِ في هذه الجدالات حول الكفَّارة والتبرير. لكنَّ أحدُ أهدافِه الأساسيَّة هو إظهارُ أنَّ إعادةَ ضَبْط الأفكار الإيمانيَّة ليس أمرًا صائبًا بحدِّ ذاته، وأنَّه غير ضروريٍّ أيضًا. إنَّ الصياغة الأكثر تقليديَّةً للإيمان، إذا فُهِمت على نحوٍ صائب، سَتُرشِدُ مُعتنقيها إلى حياةِ صنعِ العدل في هذا العالم.

وسيثيرُ هذا الكتاب اهتمامَ مجموعةٍ رابعة، حيث ازدادت في الآونة الأخيرة نسبةُ الكتبِ والمقالاتِ التي تتَّهمُ الدِّينَ بأنَّه- كما قالَ كريستوفر هيتشينز (Christopher Hitchens)- "يُسمِّمُ كلَّ شيء".[٨] إنَّهم يرَونَ أنَّ الدِّين، ولا سيَّما الكنيسة، هو قوَّةٌ أساسيَّةٌ في تعزيزِ الظُّلمِ والعنفِ على كوكبنا. وستبدو لأشخاصٍ كهؤلاء فكرةُ أنَّ الإيمانَ بإله الكتاب المقدَّس يستلزِم بالضَّرورة الالتزام تُجاهَ العدل فكرةً عبثيَّة. لكن كما سنرى، الكتاب المقدَّس مكرَّسٌ للعدل في الأرض من بدايته حتَّى نهايته. وإضافةً إلى دَعوة الكتاب المقدَّس لنا للاهتمامِ بالعدل، يُعطينا أيضًا الدَّافعَ والإرشادَ والفرحَ الدَّاخليَّ والقوَّة- كي نحيا حياةً عادلة.

لقد حدَّدتُ أربعَ مجموعاتٍ من القرَّاء، يبدو ظاهريًّا أنَّهم مختلفون، لكنَّهم ليسوا كذلك. إذ يُخفِقون جميعًا- على المستوى ذاته- في رؤية أنَّ بشارةَ يسوعَ تُفضي بالضَّرورة وبقوَّة إلى شغفٍ بالعدلِ في العالم. فالاهتمامُ بالعدلِ في جميع مناحي الحياةِ ليس بهرجةً، وهو لا يتناقَضُ مع رسالةِ الكتابِ المقدَّس.

ما سببُ اهتمامي بالعدل؟

كيف بدأ اهتمامي بهذا الموضوع؟ لم تبدأ ممارسةُ العدلِ بصورةٍ تلقائيَّةٍ في حياتي. ففي أثناء نشأتي، تجنَّبتُ الطفلَ الوحيدَ الذي كنتُ أُدرِكُ فَقره. كان اسمه جيفري

وتزامَلْنا في صفوف المدرسة الابتدائيَّة والمتوسِّطة، وقد عاشَ "تحت جسرِ الشارعِ الثامن". كان هناك فِئتَان ضمن النظام الاجتماعيِّ لمدرستي: الأصلُ والدُّخلاء المملُّون، ثمَّ يأتي جيفري، منفردًا بتصنيفٍ وحده. كانت ثيابه غير متناسقة ومن سوق الملابس المستعملة، ورائحتهُ سيِّئةً. تعرَّض جيفري للسخرية بلا رحمة، واستُبعِدَ منَ الألعابِ والمحادثاتِ، وعُوقِبَ في العمل الصفِّيّ، إذ لم يرغبْ إلَّا قلَّةٌ بالتعاون معه في حلِّ الواجباتِ والمشروعات. أعترفُ أنَّني تجنَّبتهُ في معظمِ الوقتِ؛ لأنِّي كنتُ من فئةِ الدُّخَلاءِ المملِّين آملًا أن أحُسِّن مكانتي الاجتماعيَّة. لذا بدلَ الوقوفِ في صفِّ جيفري وتمييزِ الظلمِ الذي عُومِلَ بهِ، تجاهلتُ الشخصَ الوحيدَ الذي كان خارجَ الثقافةِ أكثرَ منِّي.[٩]

لكنْ عندما دخلتُ الكلِّيَّة في أواخرِ ستِّينيَّات القرن العشرين، أصبحتُ من جيلِ التلاميذِ الذين انبهروا بحركةِ الحقوقِ المدنيَّة[§]. تعلَّمتُ عن العنفِ المُنهَجِ الذي تعرَّض له الأميركيُّون من أصلٍ أفريقيٍّ وأنصارُ الحقوقِ المدنيَّةِ في الجنوب. أتذكَّرُ تحديدًا مدى اندهاشي من صورةِ إطلاق النارِ على جيمس ميريدث (James Meredith) في وَضَحِ النهار في مسيرةٍ للمطالبةِ بحقوقِ التصويتِ عامَ ١٩٦٦م،[¶]

§ حركة الحقوق المدنيَّة (The Civil Rights Movement): حركَتْ سعت من أجل العدالة الاجتماعيَّة، وحدثت في خمسينيَّات القرن الماضي وستِّينيَّاته. ناضلَ فيها الأميركيُّون من أصل أفريقيٍّ للحُصول على حقوقٍ متساوية مع باقي المواطنين بموجب القانون الأميركيّ. فقد انتهت العبوديَّة رسميًّا هناك بعد الحرب الأهليَّة، لكنْ لم يوضَع حدٌّ للتَّمييز ضدَّ الأميركيِّين من أصلٍ أفريقيٍّ الذين استمرُّوا في تحمُّل الآثار المُدمِّرة للعنصريَّة ولا سيَّما في جنوب البلاد. وبحلول منتصف القرن العشرين، اكتفى الأميركيُّون من أصل أفريقيٍّ من التعرُّض للتحيُّز والعنف ضدَّهم، فاحتشدوا معًا برفقة بعض الأميركيِّين البيض، وبدأوا نضالًا غير مسبوقٍ دام عقدَين بغيةَ الحصول على المساواة. من أهمِّ قادة الحركة: مارتن لوثر كنغ الابن وروزا باركس (المترجم).

¶ في السابع من حَزيران/ يونيو عام ١٩٦٦م، بدأ جيمس ميريدث مسيرةً ضدَّ الخوف تنطلق من ممفس، تينيسي وُصولًا إلى جاكسون، ميسيسيبي، للمطالبة بتسجيل الناخبين من أصل أفريقيّ، وتحدِّي العنصريَّة الراسخة. في اليوم الثاني من المسيرة، تعرَّض ميريدث لإطلاق نارٍ على يد مجهول، وبعدها بساعات قادَتِ المسيرة ثلاث منظَّمات تدعم الحقوق المدنيَّة. استطاعَ ميريدث إكمال المسيرة في مدينة جاكسون بعد شفائه (المترجم).

ومطلقُ النارِ ينظرُ بكلِّ هدوءٍ في واحدةٍ من الصُّور. كنتُ مذهولًا من أنَّ مجتمعًا كاملًا سوَّغَ أمرًا ظالمًا كالفَصل العنصريِّ بكلِّ سهولة. تلك كانت المرَّة الأولى التي أُدرِكُ فيها أنَّ معظم البِيض الأكبر منِّي كانوا يُخبرونني بأمورٍ خطأ. لم تكُنِ المشكلةُ وجودَ "عددٍ قليلٍ من مثيري الشَّغب"، بل كان للأميركيِّين من أصلٍ أفريقيٍّ حقُّ المطالبة بإصلاح أخطاءٍ عدَّة وتقويمها.

"أنت عنصريٌّ، وتعلم ذلك"

رغم أنِّي ترعرعتُ في كنيسة، فإنَّ المسيحيَّة فقدَتْ بريقَها في عينيَّ عندما كنتُ في الكلِّيَّة. وأحدُ أسبابِ المشقَّةِ التي واجهْتُها هو الفرقُ ما بين أصدقائي العَلمانيِّين الذين يدعمون حركةَ الحقوقِ المدنيَّة، والمؤمنين الذين حَسِبوا مارتن لوثر كنغ الابن تهديدًا للمجتمع. تساءلتُ: ما السَّبب في إيمان غير المؤمنين الشديدِ بالعَدلِ والحقوقِ المتساوية، أمَّا المؤمنون الذين أعرفهم لم يُبدوا ذرَّةَ اهتمامٍ بهذا الموضوع؟

وحدثت نقلةٌ نوعيَّةٌ في تجرِبتي عندما اكتشفتُ مجموعةً صغيرةً- لكنَّها غزيرةَ الأفكار- من مسيحيِّين مؤمنين يدمِجون إيمانَهم في كلِّ أنواعِ العدلِ في المجتمع. في البداية، جلبتُ أفكاري عن العدالةِ العِرقيَّة ودمجتُها باللَّاهوت الذي كنتُ أتعلَّمه. في ذلك الوقت، لم أكن أرى ما أدركتُه لاحقًا أنَّ الكتاب المقدَّس يُعطي الأساس الجوهريَّ للعدل. وتعلَّمت أنَّ قصَّة الخلق في التكوين كانت أساسَ فكرةِ الحقوقِ الإنسانيَّة في الغرب[١٠] وتعجُّ سطورُ أدبِ أنبياءِ الكتاب المقدَّس بالدَّعوات إلى العدل. بعد مرور سنوات، اكتشفتُ أنَّ حركةَ الحقوقِ المدنيَّة في خمسينيَّات القرن الماضي وستِّينيَّاته، والتي أُعجبتُ بها جدًّا، كانت مؤسَّسةً على وجهةِ نظرِ الكنيسةِ الأميركيَّة من أصلٍ أفريقيٍّ عن الخطيئةِ والخلاصِ أكثر منه على العَلمانيَّة.[١١]

عندما ذهبتُ إلى كلِّيَّة اللاهوت استعدادًا للخدمة، قابلتُ طالبًا أميركيًّا من أصلٍ أفريقيّ، اسمه إيلوَرد إيلس (Elward Ellis)، وصار صديقًا لي ولزوجتي المستقبليَّة آنذاك كاثي كريستي. وقد قدَّم إلينا إرشادًا سخيًّا وصريحًا أيضًا بشأنِ أوضاعِ الظُّلمِ في ثقافةِ الولايات المتَّحدة. "أنت عنصريٌّ، وتعلمُ ذلك" قالها مرَّةً ونحن نجلسُ إلى طاولة المطبخ. وأضاف: "أنت لا تقصد أن تكونَ كذلك، ولا تريد أن تكونَ كذلك أيضًا، لكنَّ هذه حقيقتُك. ولا يمكنك فعلُ شيءٍ حيالها". مثلًا "عندما يفعل الأميركيُّون من أصلٍ أفريقيٍّ الأمورَ بطريقةٍ معيَّنةٍ تقولون: «حسنًا هذه ثقافتكم». لكنْ متى ما فعل البِيض الأمور بطريقةٍ معيَّنةٍ تقولون: «هذه هي الطَّريقةُ الصَّحيحةُ لفعلها» أنتم لا تُدركون أنَّ هذه ثقافتكم فعلًا. وأنتم لا ترَون أنَّ هناك الكثير من معتقداتكم وممارساتكم ثقافيَّة". أدرَكْنا حينها، بأساليبَ عدَّة، أنَّنا جَعَلْنا من تحيُّزاتنا الثقافيَّة مبادئَ أخلاقيَّة، وحَكَمْنا على الناس من أعراقٍ أُخرى بكَونهم أقلَّ شأنًا. كانت حُجَّته متينةً ومُحقَّةً، وما أثارَ دهشَتَنا أنَّنا وافَقْناه.

في أثناء خدمتي الراعويَّة الأولى في هوپويل، ڤيرجينيا (Hopewell, Virginia)، قرَّرتُ أن أنتسبَ إلى برنامَج دكتوراه في الخدمة، وكان مشروعي ("أطروحَتي") عن تدريب الشَّمامسة. هناك في تنظيم الكنيسة المشيخيَّة فِئتَان من المسؤولين: الشيوخُ والشَّمامسةُ. تاريخيًّا خدمةُ الشَّمامسة هي مع الفقراء والمحتاجين، لكنَّ هذا الإرثَ فُقِدَ بمرورِ السنين، واستُبدِلَتْ به مسؤوليَّة الصِّيانة والتَّنظيف والشؤون الماليَّة في الكنيسة. أشارَ عليَّ استشاريُّ البرنامجِ أن أدرسَ تاريخَ المكتبِ الإداريِّ وتطويرَ أساليبَ تُساعدُ الكنائس المشيخيَّة على استعادةِ هذا الجانبِ المفقودِ من حياتهم الراعويَّة.

أخذتُ هذا الواجبَ وكانت عمليَّةً مُغيِّرةً لي. ذهبتُ إلى قسمِ "الخدمةِ الاجتماعيَّة" في إحدى الجامعات القريبة، وأخذتُ القائمة الكاملة للكتب المطلوب قراءتها في الصفوف التأسيسيَّة، والتهمتُ تلك الكتب. أجريتُ بحثًا تاريخيًّا حول خدمة

شمامسة الكنيسة بوصفها أوَّل خدمةٍ اجتماعيَّةٍ عامَّةٍ ومنظَّمةٍ في المدنِ الأوروبِّيَّة مثل جنيف وأمستردام وغلاسكو. ابتكرتُ دوراتٍ تدريبيَّةً لمهاراتِ الشَّمامسة، وألَّفت مادَّةً لمساعدة قادة الكنيسة على النظر في خدمةٍ تُرافِقُ خدمةَ "الكلمة" للوعظ والتعليم، وهي خدمةُ "العمل" لتسديدِ حاجات الناس المادِّيَّة والاقتصاديَّة.[١٢]

بعد خدمتي الراعويَّة في ڤيرجينيا، ذهبتُ للتعليم في كلِّيَّة ويستمنستر اللاهوتيَّة (Westminster Seminary) في فيلادلفيا (Philadelphia). وكان في قسمي أربعةُ أشخاصٍ من الهيئة الأكاديميَّة يعيشون في المدينة، وعلَّموا عن الخدمة للمدينة. في كلِّ أسبوع، كنتُ أُبكِّرُ بالذَّهاب إلى اجتماع القسم لأُمضي نحو خمس عشرة دقيقة في حديثٍ فرديٍّ مع رئيس الهيئة، هارڤي كون (Harvie Conn). كان هارڤي ملتزمًا نُجاةَ العَيش والعمل في المدينة بكلِّ شغفٍ، ومدركًا بالكاملِ للظُّلم الممنهج في المجتمع. عندما أعود بالذاكرة إلى تلك الأيَّام، أُدرك أنَّ ما تعلَّمته منه أكثر بكثيرٍ ممَّا أتخيَّل. قرأتُ كتيِّبه "الكرازة: صنعُ العدل ووعظُ النعمة"[١٣] (Evangelism: Doing Justice and Preaching Grace) منذ خمسة وعشرين سنة، وقد غُرِسَتْ أفكاره عن الله والكنيسة بعمقٍ في تفكيري.

عام ١٩٨٩م قَبِلتُ دعوةً للانتقالِ إلى وسطِ مدينةِ نيويورك وبدءِ رعيَّةٍ جديدة، اسمها كنيسة الفادي المشيخيَّة (Redeemer Presbyterian Church) مدفوعًا بإلهامٍ من تعليم هارڤي، وبكلِّ الخبرات التي مررتُ بها في كنائس المدن في فيلادلفيا في ثمانينيَّات القرن العشرين.

عن النعمة والإنسان العادل

هناك الكثيرُ من الاختلافات العميقة ما بين بلدةٍ جنوبيَّة صغيرةٍ في هوپويل، ڤيرجينيا، ومدينة نيويورك العملاقة. لكنَّ هناك أمرًا واحدًا متشابهًا تمامًا ما بينهما. تفاجأت من وجود علاقةٍ مباشرةٍ ما بين فَهْم الشخص لنعمة الله واختباره

لها، وشغفهِ بالعدلِ والفقراء. في كِلا المكانَين، كلَّما وعظت العظةَ التقليديَّة عن أنَّ الله يُعاملنا بالعدل، وهو أيضًا يُحرِّرنا بالنعمة المجَّانيَّة، اكتشفتُ أنَّ أكثرَ المتأثِّرين بالرسالة صاروا حسَّاسين للمظالم الاجتماعيَّة المحيطةِ بهم. لقد اختبرَ رجلٌ في كنيستي بهوپويل تغييرًا جذريًّا؛ إذ تخلَّى عن الفهم الأخلاقيِّ العقيم للحياة، وأدرَكَ أنَّ خلاصَه مبنيٌّ على نعمةِ يسوع المجَّانيَّة وغير المستحقَّة. وهذا ما وَلَّدَ فيه دِفئًا وسعادةً وثقةً على مرأى من الجميع. لكنْ كان لذلك أثرٌ آخرُ مدهشٌ. قال لي في أحد الأيَّام: "لقد كنتُ عنصريًّا طَوال حياتي". كنتُ مذهولًا من قَوله هذا؛ لأنَّني لم أكُنْ قد وعظتُ له أو للرعيَّة عن هذا الموضوع بعدُ. لقد اكتشفَ ذلك بنفسه. عندما فَقَدَ فرِّيسيَّته وبرَّه الذَّاتيّ، أدركَ أنَّه فَقَدَ عنصريَّته.

كتبتْ إيلين سكاري (Elaine Scarry) من جامعة هارڤرد كتيِّبًا مذهِلًا بعنوان: "عن الجمال والإنسان العادل" (On Beauty and Being Just).[١٤] وكانت أطروحتها هي أنَّ اختبارَنا للجَمال يجعَلُنا أقلَّ تركيزًا على الذَّات، وأكثرَ انفتاحًا على العدل. ولاحظتُ على مرِّ السِّنين أنَّ رؤيةَ جمالِ نعمةِ الله في المسيح يَقودُ الناسَ بقوَّةٍ نحو العدل.

هذا الكتاب إذًا موجَّهٌ إلى المؤمنين بأنَّ الكتاب المقدَّس مرشِدٌ موثوقٌ به، وأيضًا إلى المتسائلين إنْ كان للمسيحيَّة أثرٌ إيجابيٌّ في العالم. أتمنَّى لو أدركَ المؤمنون أنَّ الرسالةَ الأساسيَّةَ للكتاب المقدَّس هي العدل للفقراء والمهمَّشين. وأودُّ أيضًا أن أتحدَّى مَن لا يؤمنون بالمسيحيَّة كي يروا أنَّ الكتابَ المقدَّسَ ليس نصًّا قمعيًّا، بل هو الأساسُ للفهمِ المعاصرِ لحقوقِ الإنسان. في صفحات هذا الكتاب، سأبدأُ كلَّ فصلٍ بدعوةٍ للعدل مأخوذةٍ مباشرةً من الكتاب المقدَّس، وأُوضِّح كيف يمكن أن تصبحَ هذه الكلماتُ الأساسَ للمجتمعِ الإنسانيِّ العادلِ والسَّخيّ. لا أتوقَّعُ أن يتَّفقَ جميعُ القرَّاء معي، لكنْ أرجو أن أقدِّم للكثيرينَ طريقةً جديدةً في التفكير بشأن الكتاب المقدَّس والعدل والنعمة.

الفصل ١

ما معنى أن نصنعَ العدل؟

قَدْ أَخْبَرَكَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا هُوَ صَالِحٌ، وَمَاذَا يَطْلُبُهُ مِنْكَ الرَّبُّ، إِلَّا أَنْ تَصْنَعَ الحَقَّ وَتُحِبَّ الرَّحْمَةَ، وَتَسْلُكَ مُتَوَاضِعًا مَعَ إِلهِكَ.

ميخا ٦: ٨

"لم أعرفْ مَن سيطلق النار عليَّ أوَّلًا"

التقيتُ في الآونة الأخيرة السيِّدة هيذَر (Heather)، وهي سيِّدة تواظبُ على حضور كنيستي. بعد تخرُّجها في كلِّيَّة هارفرد للقانون (Harvard Law School)، حصلت على عملٍ بدخلٍ جيِّدٍ في شركة محاماة كبرى في منهاتن (Manhattan). كان ذلك حلمًا لمعظم المهنيِّين الشباب الطموحين، وقد تحقَّق في حياتها. كانت محاميةً لشركةٍ بنفوذٍ واسع، وكانت تحيا "الحياة بملْئِها" في المدينة. ومع كلِّ ذلك، فقد خيَّم عليها شعورٌ غريبٌ بعدمِ الرِّضى. لقد رَغِبَتْ في أن تُحدِثَ فارقًا في حياة الأفراد، واهتمَّت بأفراد المجتمعِ العاجزين عن دَفْع ما يُساوي الأُجور الباهظة التي يدفعها موكِّلو الشركة حيث تعمل. أصبحَتْ

مساعدةَ النَّائب العامِّ لمدينة نيويورك، حيث كان الكثير من المجرمين الذين حاكمَتْهم أشخاصًا استغلُّوا الفقراء، ولا سيَّما النساءِ الفقيرات.

في أثناء تدريسي في كلِّيَّة اللاهوت في منتصف ثمانينيَّات القرن الماضي، كان أحَدُ طلَّابي شابًّا اسمه مارك غورنيك (Mark Gornik). ذات يوم كنَّا نقف عند الطابعة، وأخبرني بأنَّه سينتقلُ ليعيش في ساندتاون (Sandtown)، وهو أحدُ أفقر الأحياء في بالتيمور (Baltimore) وأشدِّها خطورةً. أتذكَّر دهشتي حينها. عندما سألتُه عن السبب، قال ببساطة: "لصنع العدل". مضتْ عقودٌ على آخرِ مرَّةٍ انتقلَ فيها أشخاصٌ بِيض إلى حيٍّ ساندتاون. لم يكُنْ جليًّا في سنواتهم الأولى هناك إذا كان الأمرُ سينجح أم لا. أخبرَ مارك أحد الصحفيِّين: "اشتبهتِ الشُّرطةُ أنَّني تاجرُ مخدِّرات، وظنَّ تُجَّارُ المخدِّرات أنَّني شرطيّ. لذا في الفترة الأولى لي هناك لم أعرف مَن سيطلق النارَ عليَّ أوَّلًا". لكنْ بمرور السنوات أسَّس مارك مع قادةٍ آخرين في المنطقة كنيسةً ومجموعةً شاملةً من الخدمات أحدثتِ التغييرَ في المجتمع ببطءٍ.[١٦]

مع أنَّ حياة هيذَر ومارك مريحةٌ وآمنة، لكنَّهما اهتمَّا بالمُستَضعَفين والفقراء والمهمَّشين في مجتمعنا، وقدَّما تضحياتٍ شخصيَّةً طويلةَ الأمَدِ في سبيلِ خدمة مكاسبِ هذه الفئات وحاجاتهم وقضاياهم.

وذلك بحسب الكتاب المقدَّس ما يعنيه "صنعُ العدلِ".

العدلُ هو الاهتمام بالمُستَضعَفين

يُلخِّص ميخا ٦: ٨ أسلوبَ الحياة الذي يريدُنا الله أن نحياهُ. ومعنى أن نسيرَ مع الله بتواضعٍ أن نعرفَه حقَّ المعرفة، ونكون منتبهين إلى ما يرغبُ فيه ويحبُّه. وممَّ يتألَّفُ ذلك؟ يُشيرُ النصُّ: "تَصنعُ الحقَّ وتُحِبُّ الرحمة". يبدو هذان

الأمران ظاهريًّا مختلفَين، لكنَّهما ليسا كذلك.[١٧] الكلمة العبريَّة "للرَّحمة" هي "خيسيد" (chesedh)، أي نعمةُ الله وعطفه غيرُ المشروطين. الكلمة العبريَّة "للعدل أو الحقّ" هي "ميشپات" (mishpat). في ميخا ٦: ٨، "تُشدِّدُ كلمةُ العدلِ/ الحقِّ (ميشپات) على الفعلِ، وكلمةُ الرحمة (خيسيد) على الحالةِ القلبيَّة (أو الدافع) وراءَ الفعلِ".[١٨] ينبغي لنا إذًا أن نصنعَ العدل/ الحقَّ من منطلق المحبَّة الرحيمة لكي نسيرَ مع الله.

تَرِدُ كلمة "ميشپات" بصيغٍ متنوِّعة أكثر من مئتَي مرَّة في نصِّ العهد القديم. أمَّا معناها الأساسيُّ فهو معاملةُ الناس بإنصاف. لذا يُحذِّر نصُّ اللاويِّين ٢٤: ٢٢ الشعبَ القديمَ من مغبَّة ألَّا يكون "حُكْمٌ وَاحِدٌ [سيادة القانون]...لَكُمْ. الْغَرِيبُ يَكُونُ كَالْوَطَنِيِّ". معنى "ميشپات" هو التبرئة أو الإدانة بحسب وقائع القضيَّة، بغضِّ النظرِ عن المكانة العِرقيَّة أو الاجتماعيَّة. ينبغي أن ينالَ مُقترِفو الذنْب نفسِه العقوبةَ ذاتها. لكنْ تعني كلمة "ميشپات" أكثر من مجرَّد مُعاقبة فاعلي الإثم؛ فهي تعني أيضًا إيلاءَ الناس حقوقهم. ويوجِّه تثنية ١٨ بوجوبِ دَعْم كهنة خيمة الاجتماع بِنسبَةٍ مُحدَّدةٍ من دَخْل الناس. يوصَفُ هذا الدَّعمُ بأنَّه "حقُّ (ميشپات) الكهنة" والذي يعني نصيبهم أو قِسمتهم. لذا نقرأ: "اقْضِ بِالْعَدْلِ وَحَامِ عَنِ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ" (أمثال ٣١: ٩). معنى "ميشپات" إذًا هو إعطاء الناس ما يستحقُّونه، إنْ كان ذلك عقوبةً أو حمايةً أو عناية.

لهذا السبب إنْ نظَرْنا في سياق استخدام الكلمة في العهد القديم، ستَظهرُ لنا فئاتٌ عدَّة من الأشخاص. يصفُ "ميشپات" مِرارًا وتَكرارًا الاهتمامَ برعايةِ الأرامل والأيتام والغرباء والفقراء- هؤلاء المدعوُّون "الرباعيَّة المُستَضْعَفَة"[١٩]- ودَعْم قضاياهم.

"وَلا تَظْلِمُوا الأَرْمَلَةَ وَلا الْيَتِيمَ وَلا الْغَرِيبَ وَلا الْفَقِيرَ، وَلا يُفَكِّرْ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَرًّا عَلَى أَخِيهِ فِي قَلْبِكُمْ. فَأَبَوْا أَنْ يُصْغُوا وَأَعْطَوْا كَتِفًا مُعَانِدَةً، وَثَقَّلُوا آذَانَهُمْ عَنِ السَّمْعِ" (زكريَّا ٧: ٩-١٠).

لم تكن لهذه الفئات الأربع في مجتمعات ما قبل الحداثة الزراعيَّة أيَّة قوَّة اجتماعيَّة. فقد عاشوا على مستوَى الكفاف، وكانوا على شَفير المجاعة إنْ كان هناك غزوٌ أو مجاعة، أو لمجرَّد وقوع اضطراباتٍ اجتماعيَّةٍ بسيطة. واليوم اتَّسعت هذه الرباعيَّة لتشملَ أيضًا اللاجئين والعمَّال المهاجرين والمشرَّدين وكبار السِّنِّ والأمُّ التي تعيلُ عائلتَها وحدَها.

بحسب الكتاب المقدَّس، يُمكن تقييم "ميشپات" أو عدالة مجتمع ما بأسلوبِ معاملته لهذه الجماعات. وليس إهمالُ حاجات أفراد هذه الرباعيَّة مجرَّدَ افتقارٍ إلى الرَّحمةِ أو العطاء، بل هو تعدٍّ على العدل (ميشپات). يُحبُّ الله أصحاب أضعفِ قوَّةٍ اقتصاديَّةٍ واجتماعيَّة، ويدافع عنهم وينبغي لنا أن نتمثَّل به. هذا ما يَعنيه "صنعُ العدل".

يُجسِّدُ العدلُ شخصيَّةَ الله

لمَ يجدرُ بنا الاهتمامُ بالمُستَضعَفين؟ لأنَّ اللهَ يهتمُّ بهم. تأمَّلِ النصوص التالية:

المجْرِي حُكْمًا [ميشپات] لِلْمَظْلُومِينَ، المعْطِي خُبْزًا لِلْجِيَاعِ. الرَّبُّ يُطْلِقُ الأَسْرَى. الرَّبُّ يَفْتَحُ أَعْيُنَ الْعُمْيِ. الرَّبُّ يُقَوِّمُ المنْحَنِينَ. الرَّبُّ يُحِبُّ الصِّدِّيقِينَ. الرَّبُّ يَحْفَظُ

الْغُرَبَاءَ. يَعْضُدُ الْيَتِيمَ وَالأَرْمَلَةَ، أَمَّا طَرِيقُ الأَشْرَارِ فَيُعَوِّجُه (مزمور ١٤٦: ٧-٩).

أَنَّ الرَّبَّ إِلهَكُمْ...الصَّانِعُ حَقَّ [ميشپات] الْيَتِيمِ وَالأَرْمَلَةِ، وَالمحِبُّ الْغَرِيبَ لِيُعْطِيَهُ طَعَامًا وَلِبَاسًا (تثنية ١٠: ١٧-١٨).

من اللافت رؤية عددِ المرَّات التي يُقدَّم فيها الله بوصفه مدافعًا عن هذه الفئات المُستَضعَفة. حذارِ من عدم ملاحَظةِ أهمِّيَّة ذلك. عندما يسألني الناس: "كيف تودُّ أن نُقدِّمك للحضور؟" عادةً أقترح أن يقولوا: "تيم كَلِر، خادم في كنيسة الفادي المشيخيَّة في نيويورك". دون شكّ، أنا أفعلُ أُمورًا أُخرى، لكنَّ هذا هو الأمرُ الأساسيُّ الذي أفعله في الحياة العامَّة. لاحِظْ إذًا، مدى أهمِّيَّة أن يُقدِّم مدوِّنو الوحي اللهَ على أنَّه "أَبُو الْيَتَامَى وَقَاضِي الأَرَامِلِ" (مزمور ٦٨: ٤-٥). هذا واحدٌ من الأمورِ الأساسيَّة التي يفعلها الله في العالم. فهو يقف في صفِّ الضعفاء ويناصِر قضاياهم.

يتعذَّر علينا فهمُ مدى ثوريَّة هذا التعبير في العالم القديم. يُسمِّيه دارسُ الكتابِ المقدَّسِ السيريلانكيُّ ڤينوث رَمشَندرا (Vinoth Ramachandra) "العدلَ الكاشِفَ". ويكتبُ قائلًا إنَّه في جميع الحضارات القديمة تقريبًا كان الملوكُ ونُخبةُ المجتمع والكهنةُ والقادةُ العسكريُّون واسطةَ تجلِّي قوَّة الآلهة التي كانت داعمةً لهم دونًا عن المنبوذين. فمعارضةُ قادةِ المجتمعِ إذًا هي معارضةُ الآلهة. "لكنْ هنا في رؤية الشعب القديم المقابِلة" لم يقف الله في صفِّ الذكور أصحاب المناصب الرفيعة بل في صفِّ "اليتيم والأرملة والغريب". ويمارس سُلطتهُ في التاريخ في سبيل دعمهم.[٢٠] لذا منذ الأزمنة القديمة بَرَزَ اللهُ- على خلاف آلهة الأديان الأخرى- مناصرًا للضُّعَفاء ولعدالة الفقير.

هل يُناصرُ اللّه الفقراء؟

دَفَعَ هذا التشديدُ في الكتاب المقدَّسِ بعددٍ من المؤمنين- مثل اللاهوتيِّ اللاتينيِّ غوستافو غوتييرِّيز (Gustavo Gutiérrez)- إلى الحديث بشأنِ "الفقراءِ بوصفهم الخِيارَ المفضَّلَ" لدى الله.[٢١] للوهلة الأولى يبدو ذلك خطأً، لا سيَّما في ضَوء نصوصٍ من ناموسِ موسى الذي يُحذِّر من مغبَّة إعطاء أفضليَّةٍ للأغنياء أو الفقراء (لاويِّين ١٩: ١٥، تثنية ١: ١٦-١٧). لكنَّ الكتابَ المُقدَّسَ يقول إنَّ اللهَ هو المُدافِعُ عن الفقراء، ولا يذكُر بتاتًا أنَّه المُدافِعُ عن الأغنياء. ومع أنَّ بعضَ النصوصِ تدعو إلى صنعِ العدلِ لأشخاصٍ من الطبقات الميسورة أيضًا، فالنُّصوص التي تدعو إلى صنعِ العدل للفقراء تفوقُها بعشرات المرَّات.

لماذا؟ يمكنُ أنْ يُعامَلُ الأغنياءُ معاملةً غير عادلة، لكنَّ الفيلسوف نيكولاس والترستورف (Nicholas Wolterstorff) يقولُ إنَّ من الجليِّ أنَّ الطبقات الاجتماعيَّة الأدنى هي "الأكثرُ عُرضةً للظُّلم بصورةٍ غير متكافئة (مقارنةً بفئات المجتمع الأُخرى)، ويقعون أيضًا ضحيَّته فعليًّا وبصورةٍ غير متكافئة. فالظُّلم لا يوزَّع بالتساوي".[٢٢] فمن المنطقيِّ أن يُستسهَلَ وقوعُ الظُّلمِ على الأشخاص الذين لا يمتَلِكون المالَ أو المكانةَ الاجتماعيَّة ليدافعوا عن أنفسهم. إذ ليس في وُسع الفقير تحمُّلُ تكاليف الاستشارة القانونيَّة، وهذا ما أدركَتْه جيِّدًا صديقتي هيذَر. فالفقراء في الغالب هم ضحايا السرقة- أحد أكثر أشكال الظُّلم شيوعًا- وعادةً ما تكون عمليَّةُ تطبيق القانون تجاوُبًا مع العنف الموجَّه ضدَّ الأغنياء وأصحابِ النفوذ أسرعَ وأشمَلَ منه في قضايا الفقراء. ويَخلُصُ والترستورف إلى القول إنَّ "على المرءِ تحديد مواطِنِ أشنع المظالم وأشدِّ الاستضعاف. وإذا كانت العوامل الأُخرى في صفِّهم، يُركِّزُ المرءُ اهتمامه على تصحيح ذلك".[٢٣] باختصار، نظرًا إلى أنَّ الأشخاصَ المقموعين بالقوَّة التعسُّفيَّة هم الضعفاء، فإنَّ الله يوليهم اهتمامًا خاصًّا، ويحوزون مكانةً مميَّزةً في قلبه.

إذ يقول: "افْتَحْ فَمَكَ لأَجْلِ الأَخْرَسِ فِي دَعْوَى كُلِّ يَتِيمٍ..." (أمثال ٣١: ٨).

إنْ كانتْ في شخصيَّةِ الله غَيْرةٌ على العدل ليُعطي أرقَّ محبَّته (أحشاء رحمة بحسب الكتاب المقدَّس) وينخرطَ أعمقَ انخراطٍ مع الضُّعفاء في المجتمع، فكيف ينبغي لشعب الله أن يكون؟ ينبغي أن يكونوا أناسًا مِثلَهُ مُهتمِّين بالضُّعفاء والمُستضعَفين بكلِّ شغف. لقد وضعَ الله اهتمامَه بالعدلِ في صميمِ قلبِ عبادة الشعب القديم وحياتهم الاجتماعيَّة بهذه النصوص:

مَلْعُونٌ مَنْ يُعَوِّجُ حَقَّ الْغَرِيبِ وَالْيَتِيمِ وَالأَرْمَلَة. وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْب: آمين (تثنية ٢٧: ١٩).

هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: أَجْرُوا حَقًّا وَعَدْلًا، وَأَنْقِذُوا المَغْصُوبَ مِنْ يَدِ الظَّالِمِ، وَالْغَرِيبَ وَالْيَتِيمَ وَالأَرْمَلَةَ. لا تَضْطَهِدُوا وَلا تَظْلِمُوا، وَلا تَسْفِكُوا دَمًا زَكِيًّا فِي هذَا الْمَوْضِع (إرميا ٢٢: ٣).

لقد كانت مأموريَّةُ الشعب القديم أن يُنشِئَ ثقافةً من العدالةِ الاجتماعيَّة للفقراء والمستَضعَفين؛ إذ إنَّها الطريقةُ ليُجسِّدوا مجدَ الله وشخصيَّتِهِ للعالم. يُعدُّ تثنية ٤: ٦-٨ نصًّا مهمًّا؛ لأنَّ فيه يُطلَب إلى الشعب القديم حفْظ وصايا الله، فتنظُرَ أممُ العالمِ لعدالةِ مجتمعهم وسلامه المؤسَّسين على شرائع الله، فينجذِبونَ إلى حكمةِ الله ومجده.[٢٤]

لهذا السبب يقول الله إنَّنا بإهانتنا الفقراء نوجِّه الإهانة إليه هو، وعندما نُكرم الفقراء فإنَّنا نُمَجِّده هو (أمثال ١٤: ٣١). ما لم يُكرِّمِ المؤمنون صراخَ الفقراءِ ومطالبَهم فإنَّهم لن يُكرِّموا الله- مهما كانت دعوتهم- وذلك لأنَّهم يَسترون

جَمالَه عن أعيُنِ العالم. عندما نُكرِّسَ ذواتَنا للفُقراء، فإنَّنا نَجذِبُ انتباهَ العالم.

حتَّى عندما كان المسيحيُّون أقلِّيَّةً في الإمبراطوريَّة الرومانيَّة، حازت مساعداتُهم الخيِّرةُ للفقراء احترامَ الجميع آنذاك. لكي نُكرِمَهُ ينبغي أن نحاميَ عن الفقير والمحتاج (إرميا ٢٢: ١٦).

العدلُ هو علاقاتٌ سليمة

إنَّ فحوى الفكرة الكتابيَّة بشأن العدلِ تشملُ أكثرَ من مجرَّد الاهتمام الشديد بالفقراء. وسنزدادُ بصيرةً إذا تأمَّلنَا كلمةً عبريَّةً أُخرى يمكنُ ترجمَتُها "الإنسانَ العادلَ" رغم أنَّها تُترجمُ عادةً "الإنسانَ البارّ". والكلمة هي "تصَدَقَه" (tzadeqah) وتُشيرُ إلى حياةِ العلاقات السَّليمة. يُعرِّف دارسُ الكتاب المقدَّس أَلِك موتير (Alec Motyer) معنى كلمةِ "بارّ" بأنَّه الشخصُ الذي يحيا "في انسجامٍ مع الله، لذا يَلتَزِمُ تقويمَ العلاقاتِ الأُخرى في حياته".[٢٥]

معنى ذلك أنَّ البرَّ في الكتاب المقدَّس "اجتماعيٌّ" حتمًا؛ لأنَّه يدورُ حولَ العلاقات. عندما يُصادفُ غالبيَّةُ القرَّاءِ المعاصرين كلمةَ "البرِّ" في الكتاب المقدَّس، يُفكِّرون فيها على الأرجح ضمن نطاقِ القداسةِ الشخصيَّة، كالعفَّة الجنسيَّة أو المثابرةِ على الصلاةِ وقراءة الكتاب المقدَّس. لكنَّ كلمة "تصَدَقَه" في الكتاب المقدَّس تشيرُ إلى الحياةِ اليوميَّة حيثُ يتصرَّف المرءُ في كلِّ العلاقاتِ الأسريَّةِ والاجتماعيَّةِ بعدلٍ وسخاءٍ ومساواة. فليس مُستَهجَنًا إذًا اكتشافُ أنَّ "تصَدَقَه" و"ميشپات" ذُكِرتا معًا مرَّاتٍ عدَّة في الكتاب المقدَّس.

تتطابقُ الكلمتان تقريبًا في ما يُسمِّيه بعضُ الدارسين "العدلَ الأساسيَّ" و"العدلَ التقويميّ".[٢٦] العدلُ التقويميُّ هو "ميشپات"، الذي يعني مُعاقبةَ فاعلي الإثم والاعتناءِ بضحايا المُعاملةِ الظالمة. العدلُ الأساسيُّ أو "تصَدَقَه" هو سلوكٌ- لو

عمَّ العالمَ كُلَّه- لصارَ العدلُ التقويميُّ أمرًا غيرَ ضروريّ؛ إذ سيعيشُ الجميعُ في علاقاتٍ سليمةٍ بالآخرين.[٢٧] ومع أنَّ "تصَدَقَه" هي أن نكونَ في علاقةٍ سليمةٍ بالله، فإنَّ حياة البرِّ الناتجة عنها هي اجتماعيَّةٌ بحقّ. يوضِّحُ لنا مقطعٌ من سِفر أيُّوب ما يبدو عليه هذا النوعُ من البرِّ أو الإنسان البارّ:

> **"إنْ كُنْتُ رَفَضْتُ حَقَّ [ميشپات] عَبْدي وَأَمَتي في دَعْوَاهُمَا عَلَيَّ، فَمَاذَا كُنْتُ أَصْنَعُ حينَ يَقُومُ اللهُ؟... إنْ كُنْتُ مَنَعْتُ المَسَاكينَ عَنْ مُرَادهمْ، أَوْ أَفْنَيْتُ عَيْنَي الأَرْمَلَة، أَوْ أَكَلْتُ لُقْمَتي وَحْدي فَمَا أَكَلَ منْهَا الْيَتيمُ. بَلْ مُنْذُ صبَايَ كَبرَ عنْدي كَأَبٍ، وَمنْ بَطْن أُمِّي هَدَيْتُهَا. إنْ كُنْتُ رَأَيْتُ هَالكًا لعَدَم اللّبْس أَوْ فَقيرًا بلا كسْوَةٍ، إنْ لَمْ تُبَاركْني حَقَوَاهُ وَقَد اسْتَدْفَأَ بجَزَّة غَنَمي. إنْ كُنْتُ قَدْ هَزَزْتُ يَدي عَلَى الْيَتيم لَمَّا رَأَيْتُ عَوْني في الْبَاب، فَلْتَسْقُطْ عَضُدي منْ كَتفي، وَلْتَنْكَسرْ ذراعي منْ قَصَبَتهَا...فَهذَا أَيْضًا إثْمٌ يُعْرَضُ للْقُضَاة، لأَنِّي أَكُونُ قَدْ جَحَدْتُ اللهَ منْ فَوْقُ" (أيُّوب ٣١: ١٣-٢٨).**

يُشير فرنسيس آي. أندرسون (Francis I. Anderson) في تفسيره لسِفر أيُّوب إلى مدى أهمِّيَّة هذا النصَّ في الكتاب المقدَّس في موضوعِ دراسةِ أخلاقيَّات الشَّعبِ القديم. فهو يُقدِّمُ صورةً كاملةً عن الطريقةِ التي ينبغي للشعبِ القديم البارِّ أن يحيا، "فوَفقًا له [لأيُّوب] السلوك الجيِّد هو اجتماعيٌّ بالكامل... وصوتُ ضميره يُخبره...إغفالُ صنعِ الخيرِ لأيِّ إنسانٍ آخرَ- أيًّا كانت مكانته الاجتماعيَّة- هو إهانةٌ جسيمةٌ لله".[٢٨]

تبرزُ كلُّ عناصرِ ما تعنيه الحياةُ بالعدل وفعلِه في مُراجعة أيُّوب لحياته. نرى عدلًا مباشرًا ومقوِّمًا في قَول أيُّوب: "وَدَعْوَى لَمْ أَعْرِفْهَا فَحَصْتُ عَنْهَا. هَشَّمْتُ أَضْرَاسَ الظَّالِمِ، وَمِنْ بَيْنِ أَسْنَانِهِ خَطَفْتُ الْفَرِيسَةَ" ويعني هذا أنَّ أيُّوب واجَه الأشخاص الذين استغلُّوا المُستَضعَفين. وقد يعني في عالمنا اليوم مقاضاةَ الذين يضرِبون النِّساءَ الفقيرات ويَستَغِلُّونهم ويَسرِقونَهم. لكنَّه قد يعني أيضًا أن يضغطَ المؤمنون باحترامٍ على مراكز الشرطة المحلِّيَّة إلى أن يَستجيبوا للنِّداءات والجرائم في القسم الفقير من المدينةِ بالسُّرعَة ذاتها عندما يستجيبون للقسم الغنيّ. ومثلٌ آخر على ذلك هو تأسيسُ منظَّمةٍ تُقاضي شركاتِ الإقراض وتناهضُها، لا سيَّما التي تفترسُ الفقراء والمسنِّين بممارساتٍ غير شريفةٍ ومُستَغِلَّة.

يُقدِّم لنا أيُّوب أيضًا أمثلةً عدَّةً على ما يمكننا تسمِيَتهُ بالعدالة الأساسيَّة أو الحياة بالبِرّ. إذ يقول: "كُنْتُ عُيُونًا لِلْعُمْيِ، وَأَرْجُلًا لِلْعُرْجِ" و"أَبٌ...لِلْفُقَرَاءِ". أن يكون "أبًا" أي أنَّه اهتمَّ بحاجات الفقراءِ كما يُلبِّي الوالدان حاجاتِ أطفالهم.[٢٩] يعني هذا في عالمنا أن نُخصِّص الوقتَ لنُسدِّدَ بأنفسنا حاجاتِ ذوي الحاجات الخاصَّة أو المسنِّين أو الجياع في مناطقنا. أو تأسيسَ جمعياتٍ خيريَّةٍ جديدةٍ لخدمةِ اهتماماتِ تلك الفئاتِ من المجتمع. لكن قد يعني أيضًا أن تتبنَّى مجموعةُ عائلاتٍ من القسم الثريِّ في المدينة، المدرسةَ العامَّةَ في منطقةٍ فقيرة، مع تقديم تبرُّعاتٍ سخيَّةٍ لها، سواء مساعَداتٍ عَينيَّة أم ساعاتِ تطوُّع بُغية تحسين جودةِ التعليم.

يَزيدُنا أيُّوب في الفصل الحادي والثلاثين بتفاصيلَ أكثرَ بشأن البارِّ أو حياة العدل. إذ يُلبِّي "مُراد المساكين" (العدد ١٦). لا تعني كلمة "المُراد" إيفاء الحاجاتِ الأساسيَّة من غذاءٍ ومأوى. فهي تعني تحويلَ حياةِ إنسانٍ فقيرٍ إلى بهجة. ثمَّ يقول إنَّ عدم مُشاركةِ الخبز أو "جَزَّة الغَنَم" مع الفقير سيكون خطيَّةً جسيمةً وإساءةً إلى الله (العددان ٢٣ و٢٨). بالتأكيد يفوق هذا ما نسمِّيه اليوم عملًا "خيريًّا"؛ إذ إنَّ أيُّوب لا يتصدَّق فحسب، بل يَنخرِطُ فعليًّا في حياة الفقراء والأيتام وذوي

الحاجات الخاصَّة. فرغبتُه هي في أن ينعمَ الفقراءُ بحياةٍ مبهجةٍ والأراملُ لا "تفنى" أعينُهنَّ. لم يرضَ بأنصافِ الحلولِ للمُحتاجينَ في جماعته. لم يكتفِ بأن يُعطيَهم هباتٍ صغيرةً أو من بابِ الواجبِ اعتقادًا منه أنَّ مصيبَتَهم وضعفَهم هما حالهمُ الدائم.

عندما تُقرنُ كلمتا "تصَدَقه" و"ميشپات" معًا، كما هي الحال في أكثر من ثلاثين مرَّة في الكتاب المقدَّس، يكون التعبيرُ الأفضل الذي يُعطي المعنى هو "العدالة الاجتماعيَّة".[٣٠] إنَّ تمرينَ العثورِ على نصوصٍ تردُ فيها الكلمتان مقترنتَين معًا، ثمَّ ترجمتهما لمصطلحِ "العدالة الاجتماعيَّة" يُنير الذهنَ. إليك هَذين المثلَين:

"يُحِبُّ [الله] العَدالَةَ الاجتِمَاعِيَّة. امْتَلأَتِ الأَرْضُ منْ رَحْمَةِ الرَّبِّ" (مزمور ٣٣: ٥)، وأيضًا،

"هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: لا يَفْتَخِرَنَّ الحكِيمُ بِحِكْمَتِهِ، وَلا يَفْتَخِرِ الجَبَّارُ بِجَبَرُوتِه، وَلا يَفْتَخِرِ الْغَنِيُّ بِغِنَاهُ. بَلْ بِهذَا لِيَفْتَخِرَنَّ المُفْتَخِرُ: بِأَنَّهُ يَفْهَمُ وَيَعْرِفُنِي أَنِّي أَنَا الرَّبُّ الصَّانِعُ رَحْمَةً وَعَدَالَةً اجتِمَاعِيَّةً فِي الأَرْضِ، لأَنِّي بِهذه أُسَرُّ، يَقُولُ الرَّبّ" (إرميا ٩: ٢٣-٢٤).

يتضمَّنُ العدلُ السَّخاءَ

قد يتساءل كثيرٌ من القرَّاء الآن قائلين: لماذا نُسمِّي العطاءَ في الخفاءِ للفقراءِ أنَّه "عدلٌ". يؤمن بعضُ المسيحيِّين أنَّ معنى العدلِ حصرًا "ميشپات" أي: عقابٌ لفعل الإثم فقط. لا يُشير ذلك إلى اعتقادِهم أنَّ على المؤمنين ألَّا يكترثوا بمصيبةِ الفقراء، لكنَّهم سيُصرُّون على أنَّ مساعدةَ المُحتاج بالعطاءِ السَّخيِّ هو عملُ رحمةٍ أو

تعاطُفٌ أو إحسانٌ، لكنَّهُ ليس عدلًا. رغم ذلك تُشيرُ كلمةُ "الإحسان" (Charity)" إلى العملِ الحسنِ أو الصَّالح، لكنَّه اختياريّ. لا يمكن أن يكونَ الإحسانُ أمرًا مُلزَمًا، وإلَّا ما كان إحسانًا. لكنْ لا ينسجم هذا الرأيُ مع قوَّة تعليم الكتاب المقدَّسِ واتِّزانه.

يُطلق في الكتاب المقدَّس على العطايا للفقراء (الصدقة) كلمة "أعمال بِرّ" كما في متَّى ٦: ١-٢. وبذلك يكون عدم العطاء بسخاءٍ إثمًا وتعدِّيًا على ناموسِ الله، وليس مجرَّد بُخل. وأيضًا درَسْنا وصفَ أيُّوب لكلِّ ما فعلهُ في سبيل أن يحيا حياةَ عدلٍ وبِرّ (أيُّوب ٣١). إذ يدعو كلَّ تقاعُسٍ عن مساعدةِ الفقراءِ خطيئةً وإساءةً إلى جلالِ الله (العدد ٢٣) واستحقاقًا للدَّينونةِ والعقاب (عدد ٢٨). من اللافت للنَّظرِ تشديدُ أيُّوب أنَّه إنْ ظنَّ نفسَه المالكَ الوحيدَ لكلِّ خَيراته، فسيكون ذلك إثمًا في حقِّ الله. فعدمُ "مشاركة خبزه" ومقتنياتهِ مع الفقراءِ هو إثمٌ في حقِّ الله، لذا يُعدُّ انتهاكًا لعدلِ الله.

يُعطي مقطعٌ آخرٌ من نبوَّةِ حزقيال قائمةً مشابهةً جدًّا لتلك التي في أيُّوب ٣١.

"وَالإِنْسانُ الَّذي كانَ بَارًّا (تصَدِّيق [tzaddiq]) وَفَعَلَ حَقًّا (تصَدِقَه[tzadeqah]) وَعَدْلًا (ميشپات)... وَلَمْ يَظْلمْ إِنْسَانًا، بَلْ رَدَّ للْمَدْيُون رَهْنَهُ، وَلَمْ يَغْتَصب اغْتِصَابًا بَلْ بَذَلَ خُبْزهُ للْجَوْعان، وَكَسَا الْعُرْيَانَ ثَوْبًا، وَلَمْ يُعْطِ بالرِّبا، وَلَمْ يَأْخُذْ مُرَابَحَةً" (حزقيال ١٨: ٥، ٧-٨).

هذا الرجلُ البارُّ لا يستخدم مركَزه الاقتصاديَّ ليستغلَّ أشخاصًا في وَضعٍ ماليٍّ سيِّئ. وما يُثيرُ الاهتمامَ أكثر هو اقترانُ نصِّ "يَغْتَصِب اغْتِصَابًا" بالعبارة التوضيحيَّة أنَّه يُعطي الغذاءَ والثيابَ باستمرارٍ للفقراء. والمعنى الضمنيُّ هنا: إنْ لم تُشارِك ما تملكُ باستمرارٍ وسخاءٍ مع الفقراء، فأنت سارق. أنت لا تحيا بالعدل.[٣١] لا يقتصرُ هذا الربطُ بين السَّخاءِ والاهتمامِ مع "ميشپات" بهذا النصِّ

فقط. تدعو هذه النصوص جميع الذين يَعملونَ بالعدلِ ليشاركوا ما لديهم مع المحتاجين، لأنَّ الله يفعلُ كذلك:

"الصَّانِعُ حَقَّ الْيَتِيمِ وَالأَرْمَلَةِ، وَالمحِبُّ الْغَرِيبَ لِيُعْطِيَهُ طَعَامًا وَلِباسًا. فَأَحِبُّوا الْغَرِيبَ لأَنَّكُمْ كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي أَرْضِ مِصْرَ" (تثنية ١٠: ١٨-١٩).

"أَلَيْسَ هذَا صَوْمًا أَخْتَارُه: حَلَّ قُيُود الشَّرِّ. فَكَّ عُقَدِ النِّيرِ، وَإِطْلاقَ المسْحُوقِينَ أَحْرَارًا، وَقَطْعَ كُلِّ نير. أَلَيْسَ أَنْ تَكْسِرَ لِلْجَائِعِ خُبْزَكَ، وَأَنْ تُدْخِلَ المساكِينَ التَّائِهِينَ إِلَى بَيْتِكَ؟ إِذَا رَأَيْتَ عُرْيَانًا أَنْ تَكْسوه، وَأَنْ لا تَتَغاضَى عَنْ لحمِكَ" (إشعياء ٥٨: ٦-٧).

رغمَ جميع الجهودِ المبذولةِ للفَصلِ بين "العدل" بوصفه عدلًا قانونيًّا والمشاركةَ "بوصفها إحسانًا"، فإنَّ حزقيال وأيُّوب يُقدِّرانِ السَّخاءَ الثوريَّ بوصفه علامةً على العَيشِ بالعدل؛ فالشَّخصُ العادلُ يحيا حياةَ الصدقِ والمساواة والسَّخاء في كلِّ مجالاتِ الحياة.

سنرى ونحن نُكمل دراستنا أنَّ هناك أسبابًا وجيهةً وراء قلق الكثيرين عند سماعهم المسيحيِّين يتحدَّثون بشأن "صنعِ العدل". عادةً ما يَرنُّ هذا المصطلحُ كأنَّه شعارٌ بُغيةَ حَشْدِ مستَمِعين لينضمُّوا إلى طرفٍ سياسيٍّ فحسب. ومع ذلك، فإنْ كنت تسعَى لتعيشَ حياةً منسجمةً مع الكتاب المقدَّس، لن تقدرَ أن تتغاضى عن مفهومِ العدلِ والمناداةِ به. فنحن نصنعُ العدلَ عندما نُعطي البشرَ جميعًا ما يستحقُّون بوصفهم خليقةَ الله. ويتضمَّنُ صنعُ العدلِ تصويبَ الأخطاء، والسَّخاءَ والاهتمامَ الاجتماعيَّ، لا سيَّما مع الفقراء والمُستَضعَفين.

تُجسِّدُ حياةٌ كهذه شخصيَّةَ الله. إذ تتألَّفُ من طَيفٍ واسعٍ من النشاطاتِ انطلاقًا من التَّعامُلاتِ البسيطةِ والصَّادقةِ مع النَّاس في الحياة اليوميَّة مرورًا بعطاءٍ سخيٍّ منتظمٍ ومُغيِّرٍ للواقع من وقتِك وممتلكاتِك، وُصولًا إلى نشاطٍ يسعَى إلى إنهاء أشكالٍ محدَّدةٍ من الظُّلم والعُنْف والقَهْر.